الباب الأول

الباب الأول

قد حاولت في هذا الباب أن أعرض حديث رسول الله ﷺ المروي في صحيح مسلم عن صهيب ثم أُعرِّج بعد ذلك إلى تصور عام حول جو هذا الحديث صفته في قصة على صورة حوار، وإليك:

أولاً : الحديث :

عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك: " إني قد كبرت فابعث لي غلاماً أعلمه السحر "، فبعث إليه غلاماً يعلمه السحر، وكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، وكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه فأتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: " إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر "، فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: " اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ " فأخذ حجراً فقال: " اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس "، فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: " أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى،وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل عليّ " .

وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة فقال: " ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني " فقال: " إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله تعالى فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك "، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان

يجلس فقال له الملك: " من رد عليك بصرك ؟ " قال: " ربي "، قال: " أولك رب غيري ؟ "، قال: " ربي وربك الله" فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجئ بالغلام فقال له الملك: " أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل ! " فقال: " إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله تعالى "، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجئ بالراهب فقيل له: " ارجع عن دينك "، فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جئ بجليس الملك فقيل له: " ارجع عن دينك "، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جئ بالغلام فقيل له: " ارجع عن دينك "، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: " اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه "، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: " اللهم اكفينهم بما شئت "، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك فقال الملك: " ما فعل أصحابك ؟ " فقال: " كفانيهم الله تعالى "، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: " اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه " فذهبوا به فقال: " اللهم اكفينهم بما شئت "، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال للملك: " لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به "، قال: " ما هو ؟ " قال: " تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: بسم الله رب الغلام ثم ارمني، فإنك إن فعلت ذلك قتلتني "، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: " بسم الله رب الغلام"،ثم رماه فوقع السهم في صدغه فمات، فقال الناس: " آمنا برب الغلام "، فأتى الملك فقيل له: " أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس "، فأمر بالأخدود بأفواه السكك ، فخُدت وأضرم فيها النيران ، وقال:

" من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها " ، أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها ،فقال لها الغلام : " يا أمه اصبري فإنك على الحق " (١) .

ثانياً: تفاصيل القصة :

إن القارئ لهذا الحديث يجد أن خياله سيصور له أن هذه الأحداث قد وقعت في مدينة كبيرة، أو عدة مدن يحكمها ملك ظالم، قد ادعى الإلوهية من دون الله ، وهذه المدينة محاطة بأسوار ولها مداخل معينة كحال المدن قديماً، وفي نهاية أحد الطرق المؤدية لهذه المدينة يقطن داهية عظيمة وهو ساحر الملك، رجل قد طعن في السن وأصبح قليل الحركة، وعلى أحد جانبي هذا الطريق يوجد راهب في صومعة يتعبد إلى الله ، ولا يعلم بحاله أحد ، ويبدو أن هذا الطريق غير حيوي فلا يمر عليه إلا قليل من الناس .

الساحر: لما علم بدنو أجله أرسل إلى الملك فقال له: قد كبر سني ورق عظمي فابعث لي بغلام أعلمه السحر حتى يسيِّر لك شئون دولتك من بعدى .

الملك : وافق مطلب الساحر هوى عنده، فعقد مسابقة بين غلمان المملكة، ليتخير غلاماً ذكياً، نجيباً، أريباً، ووقع الاختيار على غلام متوقد الذكاء، فأرسله إلى الساحر كي يعلمه السحر قائلاً له: يجب أن تتعلم السحر من الساحر لتحل محله إن ألم به مكروه .

بدأ الغلام يتردد على الساحر ليتعلم منه السحر، ولفت انتباه الراهب وهو في صومعته تكرار مرور هذا الغلام من الطريق المؤدية لمقر الساحر ذهاباً وعودة يومياً فأراد أن يستطلع الخبر .

الراهب: حال مرور الغلام على صومعته ذات مرة استوقفه وقال له: إلى أين

---

(١) رواه الإمام مسلم برقم ٣٧ / ٣٠٠٥ ، وأحمد برقم ٢٣٩٧٦، وابن حبان برقم ٨٧٣ ، ورياض الصالحين برقم ٣٠ ، وكنز العمال برقم ٤٠٤٦٦ ، وزيادة الجامع الصغير برقم ٢٣١٧ .

تذهب يابني رغم أنه يندر أن يمر أحد من هذا الطريق ؟ .

الغـــلام: إني أذهب إلى الساحر .

الراهب: متعجباً: لما يا بني ؟ .

الغـــلام: فرحاً مسروراً : لأتعلم السحر، حتى إذا مات الساحر أو حدث له ما لا يُحمد عقباه خلفتُه في تسيير أمور المملكة للملك.

الراهب: تنهد في مرارة وأسى ثم قال متسائلاً: فهل لك أن تتعلم ما هو خير لك من السحر؟ .

الغـلام : في استغراب وتعجب وما هو ؟ .

الراهـب: في ثقة ولهفة، أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً.

الغـــلام: في استغراب ممزوج بالأسى، وهل هناك إله غير الملك ؟

الراهـب: في عز وثقة، نعم الله الذي خلقك، وخلقنى، وخلق الملك، وله كل شيء في هذا الكون الفسيح من جمادات وأحياء .

وهنا أُعجِب الغلام بكلام الراهب، واستحوذ على وجدانه؛ فراح يكثر من الاستماع إليه، وسرعان ما تنقضي الأوقات عند الراهب، فإذا ذهب إلى الساحر ضربه لتأخره عنه.

الغـلام: بعد فترة انقطع فيها عن الراهب ذهب إليه في ذعر ورهبة، يتلفت يمنة ويسرة، يكاد أن ينعقد لسانه عن الكلام من الخوف.

الراهب: ما الذي غيبك عني خلال هذه المدة يا بني ؟.

الغـلام: مازال مضطرباً خائفاً: إذا كنتُ عندك أعجبني حديثك فأذهب إلى الساحر متأخراً فيضربني لتأخري عن ميعاده.

الراهب: بعد أن هدَّأ من روعه، واطمأن إلى أن نفسَه قد سكنت، قال له: إن

كنت عندي وسألك الساحر أين كنت ؟ فقل له حبسني أهلي (أخرني أهلي)، وإن سألك أهلك لم تأخرت ؟ فقل حبسني الساحر.

وظل الغلام يتردد على الراهب والساحر فترة من الزمن، حتى شب عن الطوق، وأصبح شاباً ناضجاً؛ يتصارع بداخله الخير والشر، ولكن فطرته السليمة كانت دائماً تميل إلى الخير.

وذات مرة، وهو داخل إلى المدينة، إذ بدابة عظيمة قد وقفت في وسط الطريق، تمنع الناس من المرور، وحاولوا إبعادها بكل وسيلة لكن دون جدوى .

وفي هذه الأثناء، كان الغلام يتمنى أن يخرج من هذا الصراع الرهيب الذي يدور بين جنبيه حتى كاد يمزقه، وفي هذه اللحظة قرر أن يجري اختباراً، فقال لنفسه: اليوم أعلمُ الراهب أفضل، أم الساحر أفضل ؟ .

الغلام: أمسك حجراً ونظر إليه ثم دعا ربه قائلاً: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها.

ففرح الناس بالغلام فرحاً شديداً ومضى كل منهم إلى حال سبيله، وأصبح الغلام حديث المدينة وظن الناس أنه قد بلغ من السحر مداه.

وفي نفس اللحظة تهللت أسارير الغلام، وكاد قلبه أن يرقص بين جنبيه من شدة الفرح، وهنا تيقن أن الراهب على حق، وأن الساحر على باطل، وفي الحال تبرأ من الكفر وأهله، وراح يجري يسابق الريح بساقيه متوجهاً إلى الراهب.

الغلام: يطرق باب صومعة الراهب بعنف أفزع الراهب في الداخل فقام مهرولاً إلى الباب وبمجرد أن فتحه ألقى الغلام رأسه في أحضان الراهب وانخرط في بكاء شديد.

الراهب: في لهفة الأم الحانية على وليدها: ما يبكيك يا بني ؟، أحدث لك مكروه ؟ .

الغلام: إنها دموع الفرح فقد استبان لي الحق وتأكدت من ضلال الساحر.

الراهب: في لهفة، كيف ؟ .

الغلام: وبدأ وجهه يتهلل، وقد استنارت قسماته بابتسامة وضيئة، راح في فرح شديد يقص على الراهب ما حدث مع الدابة، قائلاً له: لقد تأكدت من ضلال الساحر،وأنك على الحق، وأن ما دعوتني إليه وعلمتنيه هو ما يرضى ربنا .

الراهب: الذي عرف أن لله سنناً كونية ومنها أنه من سار في طريق الحق لابد وأن يبتلى، أطرق إلى الأرض وعلت وجهه مسحة من الخوف الفطري المشوب بالقلق والحذر : أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ .

ولم يقل الراهب هذا الكلام خوفاً من العذاب، ولكن خشية الفتنة، فقد كبر في السن، وظن أنه لن يحتمل العذاب.

ثم شاع أمر الغلام بين الناس، وأصبح ملاذ كل ملهوف، فكان يبرئ الأكمه، والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء بإذن الله تعالى، وكان أثناء ذلك ينشر دعوته بين الناس، لأنه كان يُعْلِم كل من جاءه باحثاً عن الشفاء أن الشفاء بيد الله إن آمن به.

وكان هناك جليس للملك (وزيراً) ومن خاصته المقربين قد كُف بصره ، فأتى الغلام محوطاً بحاشية من الجند المحملين بهدايا كثيرة، ودخل على الغلام.

جليس الملك: متوجهاً بحديثه لحاشيته: ضعوا ما في أيديكم ثم انصرفوا خارج الدار حتى أخرج إليكم.

جليس الملك: بعدما تأكد من خروج جنده توجه للغلام في استعلاء، وبنبرة فيها من الأمر المحوط بالمن والعطاء، تحفيزاً للغلام للقيام بما سيأمره به على خير وجه، قائلاً: ما هاهنا من الهدايا لك جميعها إن أنت شفيتني .

الغلام: في تواضع العارف بقدر نفسه، الناسب الفضل لربه، إني لا أشفي أحداً.

جليس الملك: انتبه للغلام انتباه المتحير بين ما سمعه من الناس وما يسمعه من الغلام، وقبل أن يتكلم، عاجله الغلام.

الغلام: إنما يشفي الله تعالى فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك.

جليس الملك: متعجباً مذهولاً، أهناك إله غير الملك !؟

الغلام: ربي وربك ورب الملك هو الله .

وبعد مناقشات لم تطل آمن جليس الملك فدعا له الغلام فرد الله عليه بصره.

ثم ذهب جليس الملك ليجلس كعادته مع الملك ولكن في هذه المرة دخل على الملك بغير قائد يقوده وبخطى ثابتة دون أن يرتطم بشيء من الأثاث، فتعجب الملك في ذهول ودهشة.

الملك: في دهشة : من رد عليك بصرك ! ؟

جليس الملك: رد في لهجة الواثق في الله قائلاً: ربي.

الملك : بعد أن زادت دهشته، وبدا على وجهه الحنق، أولك رب غيري ؟!.

جليس الملك: في ثقة الواثق بربه :ربي وربك الله.

الملك: قطب جبينه ونادى مزمجراً في أعوانه : خذوه لأعرف مصدر ما يهزي به من كلام.

فأخذوا جليس الملك يجرونه في مهانة بعد أن كان الكبير المطاع فلم يزل الملك يعذبه حتى يعرف منه من الذي أفسده عليه وجعله يؤمن بالله .

جليس الملك: بعد أن خارت قواه من شدة التعذيب اعترف متوجعاً: غلام الساحر هو الذي كان سبباً في رد بصرى، وسبباً في هدايتي إلى ربي .

الملك : في حنق وغيظ أما زلت تقول ربك ؟ .

ثم التفت إلى أعوانه في غضب ائتوني بالغلام فوراً .

فراحت حاشية الملك تفتش عن الغلام في كل مكان حتى عثروا عليه فجاءوا به مكبلاً في قيوده هذا يدفعه وهذا يجره حتى أوقفوه بين يدي الملك .

الملك: للغلام في مكرٍ ودهاء : أي بني قد بلغ من سحرك أنك تستطيع أن تبرىء الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل ! .

الغلام: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله تعالى .

وهنا ثارت ثائرة الملك فأخذه الملك فلم يزل يعذبه ليعرف منه من الذي أفسده عليه وجعله يؤمن بالله .

الغلام: مع شدة التعذيب والتنكيل خرجت الكلمات من فمه كطفل يخرج بين أنين مخاض أمه، واعترف الغلام ودل على الراهب .

الملك لأعوانه : أريد هذا الراهب الآن .

فخرج الزبانية يجوبون الأرض شرقاً وغرباً حتى عثروا عليه فأتوا به يجرونه في قيوده حتى أوقفوه بين يدي الملك .

الملك للراهب: آمراً له في غضب : ارجع عن دينك .

الراهب: في إباء وعز : لن أرجع عن ديني .

الملك لأعوانه : خذوه فاحفروا له حفرة في الأرض وأدخلوا فيها قدميه وأهيلوا عليهما التراب وعذبوه حتى يرجع عن دينه ، فحفروا له حفرة وأدخلوا فيها قدميه وقاموا بتعذيبه ، ولكنه ثابت مثل الجبل الأشم .

الملك لأعوانه : وهو يتعجب من ثبات الراهب، مشطوه بأمشاط من حديد تنزع لحمه من عظمه .

فقام أعوان السوء بتنفيذ الأمر خير قيام، ولكنه ما زال لسانه يلهج بذكر الله.

الملك: شقوه بالمنشار من مفرق رأسه حتى يريحنا من هذا الهراء. فوضعوا المنشار في منتصف رأسه ونشروه حتى وقع شقاه وهو يلهج بذكر الله.

الملك لجليسه: آمراً إياه بعد ما فعله بالراهب أمامه، ارجع عن دينك.

جليس الملك: لن أرجع عن ديني مهما فعلت.

الملك أمر أعوانه ففعلوا به مثلما فعلوا بالراهب وما تركوه إلا نصفين، ولسانه أيضاً يلهج بذكر الله.

الملك للغلام: ارجع عن دينك.

الغلام: لن أرجع عن ديني مهما فعلت.

الملك: وهو يقرض على أنيابه يتلمظ غيظاً، متوجهاً لنفر من حاشيته قائلاً لهم: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فاعرضوا عليه أن يرجع عن دينه فإن رفض فألقوه من قمة الجبل.

وبالفعل أخذ زبانية الملك الغلام وصعدوا به قمة الجبل يسوقونه كسوق الأنعام يرسف في قيوده، يعرضون عليه أن يرجع عن دينه.

الغلام: في هذه اللحظة يرفع الغلام أكف الضراعة إلى الله ـ عز وجل ـ داعياً ومستجيراً قائلاً: اللهم اكفينهم بما شئت.

فارتجف الجبل واهتز هزة عنيفة فسقطوا جميعاً وحُفظ الغلام بعناية الله.

ورغم ذلك ما فكر الغلام أن يهرب من الملك رغم علمه أنه مُصِرٌ على قتله ولكنه رجع إليه مرة أخرى.

الملك: مندهشاً من عودته وحده: أين رجالي الذين كانوا معك؟.

الغلام: في هدوء وثقة، كفانيهم الله تعالى.

الملك يتلمظ غيظاً ويقرض على أنيابه فيأمر نفراً من حاشيته قائلاً لهم: اذهبوا به فاحملوه في سفينة كبيرة فإذا كنتم في وسط البحر اعرضوا عليه أن يرجع عن دينه فإن رفض اقذفوه في البحر.

وبالفعل أخذه أعوان الملك وركبوا به سفينة ولم يتعظوا بما فُعل بمن سبقوهم وعندما توسطوا به البحر عرضوا عليه أن يرجع عن دينه.

الغلام: التجأ إلى الله قائلاً: اللهم أكفينهم بما شئت.

وتتجلى عناية رب السماء فتنقلب السفينة ويغرق كل من فيها إلا الغلام جاء يمشي مرة أخرى إلى الملك وحده فدخل عليه.

الملك جُن جنونه، وثار، وأرغى، وأزبد، قائلاً له: سأتولى أمر قتلك بنفسي.

وحاول مرات ولكنه فشل حتى أُسقط في يده.

الغلام للملك: في ثقه وكبرياء المنتصر المحاط بعناية الله: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به.

الملك: في لهفة: ما هو ؟.

الغلام: اجمع الناس في صعيد واحد، ثم اصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتى، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل بأعلى صوتك بسم الله رب الغلام، ثم ارمني فإنك إن فعلت ذلك قتلتنى.

الملك: في فرح شديد وما حاول لحظة واحدة أن يفكر في العواقب ولكن كانت كل غايته أن يتخلص من هذا الغلام ليحافظ على ملكه ومملكته فأعد العدة وأمر بالنفير في حاشيته: اجمعوا الناس في أرض واسعة.

ونادى المنادي في الناس: أن اجتمعوا من الصباح في الساحة الكبري في المدينة، لا يتخلف أحدٌ، صغيراً كان أم كبيراً، طفلاً أم شيخاً، رجلاً أم امرأة.

الملك : لما اجتمع الناس صلب الغلام إلى جذع ثم أخذ سهماً من كنانة الغلام ووضع السهم في كبد القوس وجأر بأعلى صوته قائلاً: بسم الله رب الغلام. وطاش السهم من شدة ارتباكه فجاء في صدغ الغلام ، وعجباً قد مات الغلام !

وما يلبث أن تتهلل أسارير الملك لموت الغلام حتى يسمع صيحات الناس من خلفه: آمنا برب الغلام، فدارت الدنيا من حوله، وجاءه رؤوس الشر من أعوانه وقالوا له: وقع ما كنت تحذر فقد آمن الناس.

الملك : هاج وماج وقال لحاشيته احفروا حفراً عظيمة في الطرق الرئيسية وأضرموا فيها ناراً، ومن لم يرجع عن دينه اجعلوه يقتحم النيران فإن أبى فأقحموه فيها.

وقام أعوان الملك بالأمر خير قيام، فشقوا الأخاديد في الأرض وأشعلوا فيها ناراً عظيمة، وأخرجوا الناس من بيوتهم، وكلما علموا أن واحداً منهم آمن بالله قالوا له: ارجع عن دينك، فإن أبى، قالوا له ألق بنفسك في النار، فإن تراجع عن دينه تركوه وإن تمسك بدينه ألقوه فيها، حتى جاءت امرأة ومعها طفل رضيع، فراحت لتُلقي بنفسها في النار فأخذتها الشفقة على وليدها عندما لفحها حر النار فتراجعت قليلاً، فإذا بالطفل ينطق: يا أمه اصبري فإنك على الحق.

فألقت بنفسها في النار هي وطفلها فكانت برداً وسلاماً على من أُلقى فيها بإذن الله ـ عز وجل ـ .